قصة

صندوق الشيطان

الكرمانيول[1]

للكاتبة الفرنسية « ماري مانفرون »
ترجمة الآنسة : نعمت صفي

عندما جاءت مدام « بارتيون » للمرة الأولى ، إلى سجن المعبد ، ومعها ملابس الأسرة الملكية ، إذ كلفت بتنظيفها واحضارها إلى السجن كل أسبوع ، فانها لم تتمالك نفسها من الاضطراب ! ولكن كيف ذلك ؟!

ان مدام بارتيون ، تكره الظلمة الطاغية — من الملوك — وتعلن هذا الشعور الملتهب في باحة وحماس . . وتنتظر سنوح الفرصة ، حتى تثبت ذلك بأجلى برهان . وها قد دنت الفرصة ، وها هي صحبة حارس السجن ، تصعد الدرج المظلم ، وقد امتلأ قلبها بالتشفي والشراسة . . فاذا ما انتهت الى حجرة السجناء ، دلت الاذن بالدخول في كتمان وخفة . ولكن بمجرد أن دخلت الحجرة ، خفضت عيناها من نظراتها الوقحة ، من غير أن تدري لذلك من سبب . . ثم إنها شعرت أن صوت خطواتها يرن رهيب . . وثقيل !

من يكون هذا الرجل ، ذو الجسم الممتلىء ، والخدين المتوهجين ، الذي تراه أمامها . . أترى الملك ؟ أجل . . انه الملك من غير شك .

كان يرتدي في غير تأنق ، سروالاً من الصوف البنفسجي اللون . . وسترة بلية قد سكبت بعض أزرارها من عراها ، فظهرت من تحتها صدرة من الحرير المنقوش برسم زهار .

---

[1] ان أنشودة كان يرددها الثوريون في باريس عام ١٧٩٣

وبدت على وجه الملك سمة الوداعة والعلم .. أو ربما كان هذا رمز العظمة الحزينة ، وليدة المصائب والمحن !

كان لويس السادس عشر ، يجلس على كرسي كبير ، وقد أمسك في يده كتاباً ، وهو يملي منه املاءً على ولده الطفل الجالس الى منضدة أمامه .

ورغم أن هذا الطفل هو ولي العهد ، ابن مدام انطوانيت ، وهي أم لطفل مثله .. قد انجذب قلبها الى هذا الطفل الجميل الذي تبعثر جعد شعره الأشقر الحريري فوق كتفيه ، وراح بعضها يلتوي فوق الظهر .. ولكن ، هيهات العطف . أيلين قلبها لهذا الطفل ، وهو ابن لويس السادس عشر ؟!

وفي الطرف الآخر من الحجرة ، جلست امرأة ترتدي ثوباً بسيطاً من حرير اتفاقاه الرمادي اللون . وأمامها طفلة تجلس على كرسي صغير . إنها الملكة ، وقد انهمكت في تعليم ابنتها الحياكة .

كان الهدوء شاملاً . والملك يملي على ولده دروس الاملاء ، بنغم واحد متواتر . وفي المسافة ما بين الملك والملكة ، كانت شمس الخريف ترسم على بلاط الحجرة ، في خط مستقيم من نورها الباهت ، خيالاً ضيقاً مستطيلاً لنافذة ذات القضبان الحديدية .

وتريثت مدام انطوانيت هنيهة .. ثم أخرجت الثياب الملكية من سلتها ، ووضعتها على منضدة هناك . وكان الحاوس الذي أوصلها ، واقفاً ينتظر خروجها عند الباب . ثم لمحته وقد توارى .. فتبعت اثره راقبها . يا للعجب ! أيجول بخاطره أن تلك المرأة التي تلهب وثنية وحماساً تميل الى هؤلاء القوم ! حقاً إنه لمنتهى الجنون ! ...

ولكن يا لها من أسف إذ ترى ان الملك تبدو عليه الطيبة ، وصلابة القوية ! فلو كانت تبدو عليه سمة الخبث والشر لاستمرأت قتله ، وهي في رأيها أكثر مما هي الآن .

كانت مدام انطوانيت ، تواظب على الحضور كل أسبوع ، لاحضار الملابس بعد تنظيفها ، الى سجن المعبد .. حيث الأسرة الملكية .. وكانت وهي تؤدي مهمتها هذه تمثل العاملة المجدة المتأنقة .

وكانت دهشتها تتزايد ، وهي ترى تلك المفاجأة المألوفة في كل أسرة ، ترى أمامها ضد

رتها لسجن المعبد كل أسبوع . . فاذا هي ليست غريبة كما كانت تتوهم .

وها هي ذي تدخل برمّاً، فترى ملك فرنسا وقد وقف بالقرب من النافذة، يتأمل الشمس ي تميل الى المغيب . وشعر الملك بدخول منظفة الملابس ، فالتفت إليها مبتسماً كأنه عب بها . . حتى لقد شعرت مدام باريون ، بهاجتها الى البكاء . ترى ما هو السبب في هذا شعال ؟ قد يكون الملك ، بهندامه القديم النظيم وجسمه النليظ ، قد ذكرها بزوجها ورفي !

وأحست منظفة الملابس ، أن نفسها قد انقبض بشكل غريب ، واستولى عليها الحزن سيق ، يوم ان صعد لويس السادس عشر إلى المقصلة .

تغيرت آراء مدام باريون ، فالملك لم يكن بالرجل الشرير ! ولكن المتنفذين حوله أشاروا به بكل ما هو خطأ . . ولولا ذلك لكان يشبه على أحسن ما يكون . ثم زوجته ، ه النمسوية الملعونة . . التي كانت السبب الأقوى فيما حلّ به . إنها لم تكن تحب الملك جها . وهي حقيقة لا يجهلها أحد !

كانوا قد فرّقوا بين ماري انطوانيت وبين طفليها ، بعد إعدام الملك . فنقلوها الى سجن كونسيرجيري ، حتى لا تفكر في الهرب . . . ويوم أن أرجعت مدام باريون ، الى سجن لكة . بعد هذه الحوادث ، وجدت أمامها امرأة سكينة . تلبس الثياب السود . يدة في سجن مظلم . دخلت منظفة الملابس وكانت ماري انطوانيت ، جالسة إذ ذاك منضدة عتيقة وقد استندت اليها بمرفقيها . ووضعت رأسها بين يديها . ولم ترَ مدام رون ، وجه الملكة ، فقد كان مختفياً وراء يديها النحيلتين . وظهر حول منكبيها الأبيضين شة ، شعرها الذي أصبح ناصع البياض ، بعد موت الملك . . . وعندما دخلت منظفة لابس ، لم تأت الملكة بأقل حركة . ففهمت مدام باريون ، أن ماري انطوانيت ، تبكي وراء يها المتحجرتين . وشعرت منظفة الملابس ، بنوع من الاحترام ، نحو هذه المرأة الحزينة فهم سرّه . فانسحبت عنه هادئة وهي تمشي على أطراف قدميها .

وظلت مدام باريون ، في خدمة الملكة . وكانت تعرف أن الواجب على من يشتغلون من جناد ، ألاّ يتكلموا معهم وإلاّ . . .

لقد كانت فصيلة باريون ... عمل في مدينة الوحشية ، وساءلت نفسها ، أيجوز لهم الشرع ، أن يفرّقوا بين الأم وولدها ! ... كانت هي من اجترؤوا عليها بهذه الصفة . إذن لأثبتت لهم أطافرها ، ثم أستلبها .

كانت مدام باريون ، تسير ولدها أينما ذهبت . حتى إلى سجن الكونسيير جيري فقد كانت شوارع باريس في تلك الآونة ، تسودها الاضطرابات . والقوم يردّدون أنشودة الكرمانيول ، فيرتفع طنين الثورة عالياً .

كانوا أول الأمر يحجزون ابن مدام باريون ، عند بوابة السجن ، ولكنهم تركوه أخيراً يدخل مع أمه ، عاملاً لها سلة الملابس .

وارتعدت الملكة ، يوم أن رأت ابن مغلفة الملابس ، فغر عليها الألم . ولكنها ما لبثت أن افترت عن الطفل ، وبسمت على شعره بيدها المرتعشة . كان طفلاً لطيفاً جميلاً . تتجلى النباهة في نظرات عينيه الزرقاوين . لقد لفتوه الدوس ، وحذّروه أن يتكلم مع السيدة ذات الثوب الأسود — الملكة — ولكن ليس في استطاعتهم أن يمنعوه النظر إليها ! . نظر إليها دون خجل ، ولكن برهبة . وكذلك لم يستطيعوا أن يحرّموا عليه الابتسام . فابتسم للملكة . فكان ردها على نظرات الطفل وابتسامته ، أن انعطفت نحوه تقبّل شعره الأشقر ! ...

واضطربت مغلفة الملابس ، عندما رأت الملكة تتبعها بنظراتها ، وهي تخرج صحبة ولدها . كانت ماري انطوانيت ، تنظر الى هذه المرأة الشعبية ، وهي ترحل عنها ممسكة بيد ولدها . ولا ريب أنها أحست بتيه من الحسرة .

وأتت مدام باريون ، مع ولدها ، الى سجن الملكة كالسادة . وكان أحد الجنود من حرّاس السجن ، قد داخله الشك في أمر الطفل ، فمنعه من الدخول . ولكن بخشونة وقسوة ، حتى جعله يقع فيصطدم بجبهته في زاوية مقعد من المقاعد الخشبية الغليظة . فصرخت الملكة ، كما صرخت مدام باريون نفس صرختها . ثم اندفعتا نحو الطفل بقوة واحدة ولكن الملكة كانت أسبق . فأنهضته ، وانتزعت من كومة الملابس القريبة منها ، منديلاً حملته على جبهة الطفل ، وكانت تنظر دماً . ثم ضمته الى صدرها وأخذت تربت على ظهره ، تحاول بذلك أن

تلطف عند الألم ، وتشرق المرأتان أنّ فيها الى أخرى من وراء رأس الطفل ، تشراق صبية تتكلم من ظلم الانسان ، ومسه بعض شعرها وكأنهما قد ارتبطتا برباط أبدي متين

من ذلك اليوم ، وقد منعوا الملك أن يدخل مع أمه حجرة الملكة ، كما أصبحت منطقة الملابس والملكة ، ولها لغة خاصة تتفاهمان بها . تلك هي لغة العيون . تسألها الملكة بأن ترفع حاجبيها نظرة إليها في قلق وخوف . وهذا معناه : « كيف حاله ؟ » تقرد عليها مدام باريون ، بأن تخفض عينيها في حركة سريعة ، بعد أن تنظر إليها نظرة يظهر فيها الاطمئنان . أي : « أنه بخير » .

وأنت أخيراً ، مدام باريون . [illegible] سير جيري وحيدة ، فقد كان ولدها مريضاً . وقالت للحارس بصوت بين العالي والمنخفض ، حتى يكون مسموعاً من الملكة : لقد مات وحدي ، فولدي مريض !

كان مفروضاً على الملكة ، أن تعلم أخيراً ، ولم تكن قد علمت هذا الأمر مطلقاً . إلا أنها سألت مدام باريون ، بصوت كانت هذا فيه التلق : « هل بعثوا بطبيب يعتني الطفل ؟ » وأحست مدام باريون ، بالخوف يدوب تأثراً وكمداً . وأشارت لها بالنفي !

* * *

كانت مدام باريون ، تجلس بالقرب من سرير ولدها . وقد أصبح لا يغادر الفراش . فتأخذ يديه المحمومتين بين يديها ، وهي تفكر في سؤال الملكة . وحنانها واهتمامها بالطفل ! وتأكدت مدام باريون ، ان جميع الأمهات لهن شعور واحد . ويعرفن كيف يتفاهمن فيما بينهن . بما في ذلك الملكات . ثم تألمت وهي تعض على شفتها : « لماذا يريدون انتزاع هذه المرأة ؟ » .

أجل ، إن جميع الأمهات يتكلمن لغة التفاهم سوياً . فعندما ارتدت مدام باريون ، ثوب الحداد لموت ولدها وأنت بعد ذلك للعمل ، الى سجن الكونسيرجيري . وكان الحزن قد أسقمها . وبدا على وجهها [illegible] ، وتفرحت أجفانها من البكاء . فما أن دخلت الى حجرة الملكة ، حتى وكفت عن البكاء في صمت ، وأخذت في الحزن . وكانت دموع

انطوانيت تركت أمام سلته للملابس ، والدموع تسيل حارة فوق خديها !

ولما أن صعدت من انطوانيت ، الى المنصة . جلست مدام باريون تنسها في مرضها ، وهي في أشد الآلام نفسانية . ومكنت في حولها بعض الوقت . ولكنها عدلت عن ذلك . لئلا تثيره اليها ظنون الجيران . ثم يجب ألا تتجه اليها الشكوك . وذلك من أجل الطفل ، الذي سجن المعبد — الذي وكل اليها أخيراً أمر العناية بملابسه . دون اخته الطفلة التي لا تدري عنها شيئاً — ذلك الطفل الذي يعيش في وحدة وبؤس . وقد خيل اليها وهي المرأة الذكية ، أن عليها واجب حمايته بطريقة خفية !

كيف استطاعت هذه امرأة ، أن تجعل أولئك القوم ، المرضى بحب التجسس ، يتركونها تداوم الذهاب الى سجن الطفل ، دون أن يشكوا بها أو يلتفتوا اليها ! ذلك انهم رأوا فيها امرأة سعلية ، قد استبدت بها الحزن فوق طاقتها . فهي تحب العزلة ، ولا تحب أن تتكلم أو تنظر الى أحد ! ولكنها ترى وتسمع كل شيء ، ولا تفوتها كلمة أو اشارة تتوهم انها قد تمس حياة الطفل .

* * *

ولاحظت مدام باريون أن قلبها ينوب أسىً وحزناً . إن الطفل المسجون قد أصبح نحيلاً وزاد شحوبه . كما انه كان يجلس مطأطىء الرأس فوق سريره الصغير . لا يتحرك وقد تدلت ساقاه . وكأنما هو غريق في لجة من الحزن ! وكان بالقرب منه بعض اللعب . ولكنها قديمة ألفها من زمن بعيد . كما أحزنها أنه أصبح قليل الكلام . غير أنها سمعته يوماً يتكلم . كان يتكلم متأوهاً . وكأنما يخاطب نفسه . ذاكراً « نويل » وحدائها في الأيام الخالية . ثم توسل اليه أن يهديه كتاباً مصوراً ! لقد وصل أن سمع المسكين أن عيد الميلاد آت بعد قليل !

لقد أقبل نويل ! انهم قطعوا الرقاب ، وغيروا الأوضاع . ولكن ليس في مقدورهم أن يمنعوا سفار الأطفال ، أن ينتظروا مجيء الطفل يسوع عند المذاة !

كانت مدام باريون ، قد احتفظت بلعب ولدها بعد وفاته ، كتذكرة للذكرى . وكان منها كتاب مصور

لم يتوصل أي انسان ، الى معرفة ما هي الطريقة التي أمكن بها لمدام باريون أن تدخل في ساعة متأخرة من ليلة عيد ميلاد المسيح ، الى حجرة ولي العهد الصغير ، وأن تضع حذاءه الصغير في المدخنة سرًا ، قبل أن ينام . فاذا أصبح الصباح ، وجد الطفل ، كتاب الصور فوق حذائه . أما منطقة الملابس ، فقد قبض عليها .

لم يكتشفوا شيئًا في الكتاب ، يوجب الريبة . ولكن حوكمت مدام باريون ، أمام محكمة الثورة ، وحكمت بادانتها ، بدعوى انها ارتكبت والطفل سجين المعبد ، جريمة « التواطؤ السري » ولأنها خانت « ثقة الشعب » وعلى ذلك ، فقد حكم عليها بالاعدام . وأما مدام باريون من نفسها ، فانها كانت تعلم أنهم سوف لا يدركون معنى ما تريد أن تقول ، دفاعًا عن نفسها ، ولم تكن كذلك ، تشعر بالخوف من الموت ، أو بالأسف على الحياة . ولكنها أصبحت ثقيلة النفس ، حزينة الفؤاد إنها ستترك الطفل السجين ، وحيدًا في هذه الحياة ! ...

وعندما قادوا مدام باريون ، الى السجن المعد لها ، سألت الجندي الذي كان يقودها من أحد الدهاليز الموصلة الى حجرتها : « بربك يا سيدي : ماذا قال الطفل عندما وجد كتاب الصور ؟ » ولم يكن ذلك الجندي شريرًا قاسيًا كما كان الآخرون . فأشفقت الشفقة من أجل تلك المسكينة . وقال لها بصوت خافت ، وهو يرفع كتفيه : تسألين ماذا قال ! لقد فعل ما تفعله جميع الأطفال : صفق بيديه طربًا . وصاح قائلاً : « ها قد فكر في نوبل انريل أن الي ! فانهم لم يتمكنوا من أن ينسوه مني أبدًا » . فابتسمت المرأة الشقية ، وفاض على وجهها البشر والسرور . ثم قالت بعد أن فكرت قليلاً : « إنه ليس بالشيء الكثير ، إذا أنا ضحيت بحياتي في سبيل أن أبعث الفرح في قلب طفل صغير مسكين مثله الجميع »

* * *

وها هي ذي تلك المرأة الحقيرة الشأن ، ترتفع بشخصيتها عنهم ، وهي ذاهبة الى أعلى الرتب العظيمة . فتأخذ مكانها بجانب من فاقوها بأشرف التضحيات وأنبلها

ثروت حسن